وإن طالت مدة الإمهال في التمكين حين يرون العذاب عيانا في الآخرة
من أضل سبيلا أي أخطأ طريقا أهم أم المؤمنون ولما كان صلى الله
عليه وسلم حريصا على رجوعهم ولزوم ما ينفعهم واجتناب ما يضرهم
سلاه تعالى بقوله تعالى معجبا من حالهم أرأيت أي أخبرني من
اتخذ إلهه هواه أي أطاعه وبنى عليه دينه لا يسمع حجة ولا ينظر
دليلا فإن قيل لم أخر هواه والأصل قولك اتخذ الهوى إلها أجيب
بأنه ما هو إلا تقديم المفعول الثاني على الأول للعناية كما تقول علمت
منطلقا زيدا لفضل عنايتك بالمنطلق ولما كان لا يقدر على صرف
الهوى إلا الله تعالى تسبب عن شدة حرصه على هداهم قوله
تعالى أفأنت تكون عليه وكيلا أي حافظا تحفظه من اتباع هواه
لا تقدر لك على ذلك أم تحسب أن أكثرهم أي هؤلاء المدعوين
يسمعون أي سماع من ينزجر لو كان غير عاقل أو يعقلون أي
كالبهائم ما يرون وإن لم يكن لهم سمع حتى تطمع في رجوعهم باختيارهم
من غير قسر فإن قيل إنه تعالى لما نفى عنهم السمع والعقل
فكيف ذمهم على الإعراض عن الدين وكيف بعث إليهم الرسول
فإن من شرط التكليف العقل أجيب بأنه ليس المراد أنهم
لا يعقلون شيئا بل المراد أنهم لم ينتفعوا بذلك العقل فهو
كقول الرجل لغيره إذا لم يفهم إنما أنت أعمى وأصم فإن قيل لم خص
الأكثر بذلك دون الكل أجيب بأنه كان منهم من آمن ومنهم
من عقل الحق وكابر استكبارا وخوفا على الرياسة ولما كان
هذا الاستفهام مفيدا للنفي استأنف ما أفهمه بقوله تعالى إن
أي ما هم إلا كالأنعام أي في عدم انتفاعهم بقرع الآيات آذانهم
وعدم تدبرهم فيما شاهدوا من الدلائل والمعجزات بل هم أضل

أي

١٧

أي منها سبيلا لأنها تنقاد لمن يتعهدها وتميز من يحسن إليها ممن
يسيء إليها وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها وتهتدي لمراعيها
ومشاربها وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم
من إساءة الشيطان الذي هو عدوهم ولا يطلبون الثواب الذي
هو أعظم المنافع ولا للحق الذي هو المشرع الهني والعذب الروي
ولما بين تعالى جهل المعرضين عن دلائل التوحيد وبين فساد
طريقتهم ذكر أنواعا من الدلائل على وجود الصانع أولها الا
ستدلال بالنظر إلى حال الظل مخاطبا رأس المخلصين الناظرين
هذا النظر حثا لأهل وده على مثل ذلك بقوله تعالى ألم تر أي تنظر
إلى ربك أي صنعه وقدرته كيف مد الظل وهو ما بين طلوع
الفجر إلى طلوع الشمس يجعله ممدودا لأنه ظل لا شمس معه
كما قال تعالى في ظل الجنة وظل ممدود إذ لم يكن معه شمس وإن
كان بينهما فرق وهو الليل لأن ظل الأرض الممدود على قريب
من نصف وجهها مدة تحجب نور الشمس مما قابل قرصها من
الأرض حتى امتد بساطه وضرب فسطاطه كما تحجب ظلمة
ظلالهم أنوار عقولهم وغفلة طباعهم نفوذ أسماعهم ولو شاء
لجعله أي الظل ساكنا أي دائما ثابتا لا يزول ولا تذهبه الشمس
لاصقا بأصل كل مظل من جبل وبناء وشجر غير منبسط فلم
ينتفع به أحد سمي انبساط الظل وامتداده تحركا منه وعدم ذلك
سكونا لكنه تعالى لم يشأ بل جعله متحركا كما تسوقه الشمس له وقال
أبو عبيدة الظل ما نسخته الشمس وهو بالغداة والفيء ما نسخ
الشمس وهو بعد الزوال سمي فيئا لأنه فاء من جانب المشرق إلى
جانب المغرب ثم جعلنا الشمس عليه أي الظل دليلا أي أن الناس

Copyright © King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)